الممارسات الطقوسية والتفاعلات الاجتماعية عند التجانيين في الاحتفال بالمولد النبوي (الزاوية التجانية برأس الماء نموذجا)

Ritual practices and social interactions among tidjanites during the birth ceremony of the prophet. (The brotherhood of Ras El maa sample)

محمد دادي*

أستاذ محاضر (ب)، جامعة ابن خلدون -تيارت

Mohammed Daddi

M.C.B. Ibn Khaldoun university of Tiaret

Mohamed.daddi@univ-tiaret.dz

تاريخ الاستلام: 2021/07/18 تاريخ القبول: 2021/11/28 تاريخ النشر: 2022/04/03

- **الملخص:** تهدف الدراسة إلى التعرف على نوع الممارسات الطقوسية أثناء الاحتفالات بالمولد النبوي، والتي تجمع بين أعضاء الزاوية التجانية برأس الماء، كما نسعى من خلال هذا البحث إلى تفسير وتأويل الدلالات والرموز والمعاني التي يعطيها المحتفلون التجانيون لهذه الممارسات الطقوسية. ويرجع اختيار هذه الطريقة والزاوية دون غيرها من الزوايا الطرقية الأخرى للاهتمام الكبير الذي توليه للاحتفال بالمولد النبوي. فبعد التحقيقات والمقابلات الاستكشافية والميدانية التي قمنا بها بهذه الزاوية في المرحلة الأولى، تم استعمال الملاحظة من دون مشاركة كأداة وتقنية منهجية جد ملائمة في البحوث الأنثروبولوجية والإثنوغرافية، والتي دامت لمدة يوم وليلة، أي منذ بداية التحضير لهذا الاحتفال إلى غاية انتهائه. في حين أن المنهج المستخدم كان المنهج الوصفي التحليلي كمنهج مناسب لمثل هذه الدراسات الكيفية. من أبرز النتائج المتوصل إليها هو أنه من خلال هذه الاحتفالات الطقوسية يعُبر التجانيون عن روح الانتماء وتعزيز مبدأ التضامن كجماعة دينية لها ميزاتها وخصوصياتها الطقوسية والاعتقادية وهذا ما يجعلها تشعر بوحدة الانتماء والاعتقاد، مما يعزز لديها فكرة الاتحاد والتضامن والشعور بالانسجام والتكامل. فالاحتفالات بالنسبة للتجانيين، حتى وإن كان المقدس فيها هو الشيء الجوهري غير أنها ذات طابع علائقي حيث أنه مهما كانت طبيعة هذا المقدس كائنا كان أو شيء، قبة أو جدا إلا أنه يبقى ذات طابع رمزي ودلالي ولهذا فان الطابع العلائقي هو الذي يضفي صفة القداسة على الشيء أو الكائن. وهذا ما يظهر ويتجسد بصفة عامة في الاحتفالات مما يسمح للجماعة بتوطيد العلاقات وتمتينها ويرسخ الثقة بالنفس ويؤكد على صدق وصحة الاعتقاد في ظل تصاعد وتنامي الفرق الإسلامية الأخرى

- **الكلمات المفتاحية:** التجانية، التفاعل الاجتماعي، القداسة، الاحتفالية، الطقوس.

- **Abstract:** This study aims to identify the sort of ritual practices, during the celebrations of the prophet's birthday, which connect between members of the Tidj'ania in the Algerian province, Ras al-M'aa. Further, it investigates to explain and interpret the connotations, symbols and meanings that Tidj'ani celebrants bring to these rituals. In fact, the option of this tariq'a and z'aouia was exclusively made than that of other tariq'as because the

tariq'a al- Tidj'ania pays great attention to the celebration of the prophet's birthday than any

*-المؤلف المرسل

others. Certainly, after investigations and exploratory and field interviews, which were applied in this z'aouia in the preliminary stage, the researcher used a non-participatory observation - It is a very appropriate research method in anthropology and ethnography. This observation lasted a day and night, that is, from preparation of celebration until the end of it. Besides, the methodology used in this research was qualitative, that is, the descriptive and analytical study.This research came up with the results that the Tidj'anis express the spirit of affiliation and strengthen the principle of solidarity, through ritual ceremonies. Therefore, as a religious group, it has its own ritual and belief features and peculiarities, and this is what makes it perceive the unity of affiliation and belief, thus, this enhances idea of union and solidarity as well as the sense of harmony and integration. In addition, from the view of Tidj'anis, the celebrations are the source of relational nature, which contributes to the sacredness; even though the sanctified in them is, the essential thing whatever the nature of it is, be it a thing or creature such as, a dome or an ancestor, however, this remains only symbolic and semantic character. Consequently, the relational character confers holiness on the thing or object. As a result, this is what embodies in general in celebrations, which allows the group to consolidate and strengthen relations, establish self-confidence, and emphasizes the sincerity and validity of belief in light of the rise and growth of other Islamic sects.

- Keywords: Tidj'ania, social interaction, holiness, celebration, rituals

1- مقدمة :

من المواسم الاحتفالية الكبرى لدى التجانيين، الاحتفال بالمولد النبوي الشريف الذي يقام سنويا بمقر الزاوية التجانية "برأس الماء" ويعد هذا الاحتفال فرصة بالنسبة للمريدين والأحباب للالتقاء وإحياء هذه الذكرى التي تحظى بمكانة مميزة لدى التجانيين، حيث يتوافد على الزاوية العديد من الأتباع والمريدين من العديد من المناطق والولايات القريبة منها والبعيدة الحضارية منها والريفية. كما تختلف الشرائح الاجتماعية وتتعدد، إذ نجد الأستاذ الجامعي والإداري، كما نجد التاجر والفلاح والموال. كما نجد اختلافا في الفئات العمرية. فالمُلاحظ أنه وإن اختلف المحتفلون في أصولهم الاجتماعية وفئاتهم العمرية ومستوياتهم التعليمية، إلا أنهم يتوحدون في جماعة واحدة ومؤسسة واحدة وهي الطريقة والزاوية التجانية.

كما تكثر الهدايا خاصة في المواسم والاحتفالات، والتي يعتبر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف أبرزها، أين يتوافد الكثير من الأتباع والأحباب من أماكن وولايات مختلفة لإحياء هذه الذكرى، والتي تتميز بمكانة خاصة لدى كل من القائمين على الطريقة التجانية وأتباعها من المريدين والأحباب وهي فرصة لالتقاء التجانيين، كما أنها فرصة لتقديم الهدايا والعطايا مساهمة في إنجاح وإحياء هذه الذكرى من جهة، ومن جهة ثانية هي فرصة للتقرب من الشيخ طمعا في نيل

رضاه وبركته باعتباره حفيدا من (أحفاد الرسول)، ومن ثم وارثا للبركة النبوية. ومن هنا توجب علينا طرح الأسئلة التالية: لماذا يولي التجانيون أهمية خاصة للاحتفال بالمولد النبوي الشريف؟ وماهي الدلالات والمعاني والرموز التي يعطونها لهذا الاحتفال؟

- الإطار النظري والمنهجي والمفاهيمي للدراسة:

2-أهمية الدراسة :

تكمن أهمية الدراسة في كونها تتناول موضوعا من الموضوعات المتعلقة بالممارسات الدينية والطقوسية لدى أتباع الطريقة التجانية، وذلك من خلال تسليط الضوء على نوع هذه الممارسات، إضافة إلى دلالة ورمزية هذه المناسبة وخاصة في ظل النقاشات والجدالات التي تعرفها هذه الاحتفالات وإحياءها في كل مرة بين مؤيدين ومعارضين لها، أي بين إجازتها واستحسانها، أو تحريمها وتجريمها.

3-أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة للوصول إلى النتائج والتفسيرات التالية:

- معرفة نوع الممارسات الطقوسية التي يمارسونها مريدي وأتباع الطريقة التجانية أثناء الاحتفال بالمولد النبوي.
- محاولة فهم وتفسير رمزية الاحتفال ودلالاته لدى أصحاب هذه الطريقة.
- إبراز محددات العلاقة ما بين المريدين والأتباع فيما بينهم وبين شيخ الزاوية.
- محاولة معرفة نظام التراتبية الاجتماعية والجينيالوجية الموجودة بين مريدي وأتباع هذه الزاوية.

4- تحديد المفاهيم:

4-1 مفهوم الطقس:

«إن كلمة طقس Rite تشتق من الكلمة اللاتينية Ritus، والتي تعني عادات وتقاليد مجتمع معين، كما تعني كل أنواع الاحتفالات التي تستدعي معتقدات ذكرت خارج الإطار التجريبي». (طوالبي، 1998، صفحة 34)

تكمن أهمية الطقس في إثبات استمرارية الحدث التاريخي الشهير. فالطقس يسعى دائما من خلال استدامة وتكرار القواعد التي تثبته إلى تكريس ديمومة الحدث الاجتماعي أو الأسطوري الذي أوجده. فهو بذلك إعادة خلق وتحيين لماض غامض، غير أنه يأخذ معناه عند الذين يستخدمونه على أنه فعل ديني. (طوالبي، 1998، صفحة 34) وهذا ما يجعل من الطقس سلوكا

وفعلا متكررا ومرحلة من المراحل التي يسعى الفرد من خلالها إلى تحقيق الهدف الأسمى الذي ترضاه الروح وتطلبه.

يعرّف "ج. غازانوف" الطقس بأنه: «سلوك يتكرر تبعا لقواعد ثابتة بحيث لا ترى بأن إنجازها يؤدي إلى أثار ذات فائدة... إذ أن فعاليتها هي، من نسق خارج الإطار التجريبي، على الأقل». ويعرفه "لينهارد" بأنه: «وسيلة في التعبير من أجل الانخراط في عالم خارج الإطار التجريبي». كما يعرفه "فاندر لو" Vander Lou بأنه: «أساطير تتحرك لأن الأسطورة هي مؤسسة الفعل المقدس. فهي تسبقه وتضمن بقاءه، والقيام بأي عمل هو تجديد لتجربته الأولى». (طوالبي، 1998، ص.34)

فالطقس هو الشيء المتبقي عندما تختفي الأسطورة، وعندما تمحى وتنسى الاعتقادات من الذاكرة الجماعية. ففي معظم الحالات، في الجزائر، فإن الأفراد يمارسون العديد من الطقوس بدون أن يجد لها تفسيرا مقنعا. فالممارسات الطقوسية حين وجودها، فهي تعبير عن امتحان من أجل تفعيل المعتقدات الشعبية، وهذه الأخيرة ليتم التعبير عنها في إطار من الحركات والسلوكات التي تندمج في الحياة اليومية مما يجعل الكثير من الطقوس تفقد دلالتها الدينية الأصلية. وبغض النظر عن الممارسات الطقوسية والتي تدخل في التمثلات والتصورات المعلنة والتي يعبر عنها بواسطة بروتوكولات رسمية، فإنه بالمقابل هناك طقوس يصعب الإحاطة بها لأنها تدخل في خصوصيات الأمر، كما بالنسبة للأفراد. فمجرد حركة أو فعل حتى ولم يكن ذات أهمية، وحتى وإن كان لا واعيا يمكن أن يمثل قيمة لطقس ما، إذ نحن نعلم منذ "مارسيل موس" Marcel Mauss أن مجرد حركات للجسد يمكن أن تتحول إلى طقس أو حتى إلى مؤسسة غير قابلة للنقاش. (Marouf, 2005, p. 87) ولذلك يقول "ليفي ستروس" بأن الأسطورة هي الشيء الجميل والذي يمس ويؤثر.

الممارسات الطقوسية التي كانت تقام، والتي ما يزال بعضها يجري في الزوايا، تتراوح بين التسبيح وتقديم الأضاحي والقرابين إلى الرقصات المشهورة ورقصات السيوف واللعب بالنار والأفاعي. والطريقة هي التي تعطي كل زاوية وحدتها العامة مما يجعل زاوية درقاوية وليس مثلا قادرية أو تجانية. بل أن التنظيم العام للطريقة مفتوحا للعضوية دون أن يكون الأعضاء وبالضرورة متشابهين في وجهات النظر. وقد كانت الزاوية هي الحصن الحصين في كل الأماكن وعلى كافة المستويات وخاصة ما يتعلق بالشؤون المحلية. (غيرتز، 1995، ص. 127)

وتكمن أهمية الطقس في إثبات استمرارية الحدث التاريخي الشهير. فالطقس يسعى دائما من خلال استدامة وتكرار القواعد التي تثبته إلى تكريس ديمومة الحدث الاجتماعي أو الأسطوري الذي أوجده. فهو بذلك إعادة خلق وتحيين لماض غامض، غير أنه يأخذ معناه عند الذين

يستخدمونه على أنه فعل ديني. (الأخضر، 1993، ص. 34) وهذا ما يجعل من الطقس سلوكا وفعلا متكررا ومرحلة من المراحل التي يسعى الفرد من خلالها إلى تحقيق الهدف الأسمى الذي ترضاه الروح وتطلبه.

اجرائيا الطقس هو مجموع الأفعال والممارسات والسلوكات التي تقوم على التكرار الدوري والمنتظم التي يقوم بها فرد أو جماعة في فترات ومناسبات معينة.

2-4مفهوم المقدس:

المقدس هو المرجعية التي تسعى إليها كل ثقافة لتعيين القوى التي تفلت منها ولا يمكن لها أن تتحكم فيها وهي تهدف لأن تسيطر عليها بواسطة مجموعة من الميكانيزمات والآليات والتي يمكن تلخيصها في كلمة "طقس" وقد تكون هذه الآليات معلنة وفي أحيان أخرى مستترة وغير ظاهرة. (Moussaoui, 2002, p. 12) ومن هنا تظهر أهمية الطقس كطريق ومسلك يمارسه الفرد المومن للتقرب من المقدس، ويعبر من خلاله من المدنس نحو المقدس.

فهناك الشعور الذي يدركه الإنسان حول المقدس، وهو شعور مبهم ومحير مما يحيله إلى تعديلات متلاحقة ومنظّمة لوضعه المشوش. وبالتالي، . وبسبب كونه خاضعا (للمقدس)، -هذا النوع من القلق الوجودي- يسعى الإنسان، عن طريق الطقوس، للتقرب من العالم المقدس، وهو موضع تهدئة اضطراباته. في الحقيقة، يكون الطقس بمختلف أنواعه، التطهيري والمساري أو السحري، يكون بالنسبة لكازنوف ذا اتجاه واحد في كل وظائفه: لا هدف له سوى إعادة التوازن الداخلي للإنسان الذي يمزقه اتصاله مع تقلبات العالم الخارجي. فمن وجهة النظر هذه، تكون وضعية الطقس الدينية دفاعية قبل كل شيء. وهذا ما يدفع المؤلف إلى القول أن «كل تغير يضع الإنسان في وضعية قدسية. لقد انغلق عبثا في منظومة من القواعد، وهو يشعر بنفسه مستقرا فيها، محددا، وها هو يخرج منها، لوقت قصير ربما... إنه قلق، لأنه يواجه سره الخفي الخاص به، مع ما يتضمنه من غموض. إن وجوده يتجاوز الوضع البشري الذي تحصره فيه القاعدة الاجتماعية والذي يشعر فيه بالأمان. عندئذ، يلجأ إلى الطقوس لاستعادة التوازن المفقود، ليتّقي الدنس أو يتخلص منه...فالمحرمات، التطهيرات، طقوس الانتقال، هي ردود فعل دفاعية ضد هذه التهديدات» (طوالبي، 1998، ص. 38)

حيث أن هذا الاعتقاد لا يزال راسخا عند فئة كبيرة من المجتمع الجزائري وخاصة عند العنصر النسوي. ومعظم الكرامات والمعجزات قد مرت منذ زمن بعيد، في حين بقيت الذاكرة الشفوية في ترديدها وتوارثها ونسبها لهذا الولي أو ذاك. كما أن غالبية الأولياء لا تظهر أهميتهم إلا بعد وفاتهم، حيث أن كراماتهم تتأكد بعد مفارقتهم الحياة. أما بالنسبة للمرابطين والأولياء الأحياء،

فإنهم يتميزون بمعجزات وقدرات بسيطة، فهم يتمتعون بمعرفة الأسرار. فإلى وقت قريب كانت الزاوية التجانية بفاس كانت تمارس احتكارا وتأثيرا مباشرا على الزوايا المجاورة لها كما أن أحباب التجانية يتلمسان كانوا يحبون سنويا إلى الزاوية التجانية بفاس أين يتواجد ضريح "أحمد التجاني" مؤسس هذه الطريقة لحضور الاحتفالات التي تقام هناك، ولتقديم الاشتراكات (الزيارات). وإحدى هذه الاحتفالات كان يقام خصيصا لتقديم البرهان على البركة (Marouf، 2005، ص. 104) وربما هذا ما يمكن أن يفسر لنا كثرة القباب والأضرحة التي تحاط بتقدير واحترام كبيرين في أوساط المجتمعات المغاربية حتى يومنا هذا.

يمكننا اعتبار المقدس اجرائيا الاحترام التام والإذعان الكامل والوفاء المطلق للكائن المقدس سواء كان كائنا بشريا أو مكان أو جد أو أي شيء يمكن تقديسه.

3-4 مفهوم البركة:

فيما يخص الإسلام الطرقي والتدين الشعبي بالمجتمعات المغاربية، فإن هناك من يرى في التبرك بالأولياء والتواصل لبعض الاعتقادات والطقوس أنها استمرار لبعض الطقوس البربرية القديمة، والتي امتزجت مع دخول الإسلام إلى بلاد المغرب. (الأخضر، 1993، ص. 30) وقد يكون هذا ناتج من دخول الإسلام إلى بلاد البربر والتي اعتنقت الإسلام مع الاحتفاظ بخصوصياتها الثقافية وربما الدينية.

يذهب "شيلهود" للقول بأن الإسلام يقبل بعض مظاهر التقديس عند بعض الأشخاص الذين وهبهم الله خطوة خاصة تخولهم اجتراح المعجزات، لكنه يضيف أيضا، أن الإسلام ينكر بالمقابل تقديس الأشخاص... ويدل ذلك بوضوح على أنه لو كانت البركة جوهرا دينيا حقيقيا فعلا في العرف الإسلامي، لاستمرت عند بعض الناس كامتياز لا تنازل عنه. إذ تبقى القدسية في أي شيء حظوة الله المطلقة. ومن هنا ينطلق العلم التقليدي الذي يمثله العلماء والفقهاء، في تحريم عبادة الأولياء، أي هؤلاء الحاملين للبركة الذين توصل التدين الشعبي إلى اعتبارهم وسطاء شرعيين مع الله. (طوالبي، 1998، ص ص. 94-95)

اجرائيا مفهوم البركة هو مجموع المشاعر والأحاسيس التي يحملها الفرد المؤمن بها، والتي من خلالها يعتقد أن بإمكانه أن ينال البركة، أي الاستزادة من كل الخيرات سواء المادية أو المعنوية.

4-4 مفهوم التفاعل الاجتماعي:

هو التأثير المتبادل بين نظامين أو أكثر، والتفاعل الاجتماعي هو العلاقة بين طرفين أو جماعتين صغيرتين أو فرد وجماعة صغيرة تجعل من سلوك أي منهما منبها لسلوك الآخر وجميع المواقف الاجتماعية من هذا النوع. (حجازي، 2008، ص. 123)

أما المفهوم الإجرائي هو علاقات التأثير المتبادل بين أفراد الجماعة والزاوية التجانية.

- الجانب الميداني للدراسة:

1-5 التعريف بمنطقة "رأس الماء":

تقع دائرة "رأس الماء" جنوب ولاية سيدي بلعباس، حيث تبعد عن عاصمة الولاية بحوالي 86 كلم. وهي تتوسط بين أربع ولايات وهي: ولاية تلمسان غربا وولاية سعيدة شرقا وولاية النعامة جنوبا وولاية سيدي بلعباس شمالا. فهي بذلك تحتل موقعا استراتيجيا. وما يميز هذه المنطقة أنها من المناطق السهبية، والتي تحتل فيها مهنة الرعي المكانة الأولى والمورد الأساسي لمعظم قاطنيها. ومن المميزات الأخرى لهذه المنطقة أنها منطقة عسكرية حيث تتواجد بضواحيها العديد من الثكنات العسكرية وقد يعود ذلك إلى الحقبة الاستعمارية أين كان الجيش الفرنسي يتواجد بقوة في هذه الناحية.

أما التركيبة البشرية لرأس الماء فهي متكونة من أربع قبائل وهم: حميان، بني مطهر، الخلايفة، وبني سليمان. حيث تمثل هذه العشائر أغلبية سكان هذه المنطقة. ومما يجب الإشارة إليه هو أن هذه القبائل لا تتواجد فقط على مستوى هذه المنطقة وإنما لها امتدادات إلى المناطق المجاورة وخاصة الجنوبية منها.

وفيما يخص دائرة رأس الماء فهي بلدية شبه حضارية، حيث تتداخل فيها مظاهر التمدن والريف. والملاحظ أنها تجمع بين خصوصيات المدينة من وسائل النقل، وكذا المؤسسات الإدارية والمدنية والتعليمية...ومن جهة أخرى يظهر عليها الطابع الريفي والمتمثل أساسا تربية المواشي والزراعة. كما أن الطابع العمراني لهذه البلدية ينقسم إلى قسمين أولهما طابع عمراني يعود إلى الحقبة الاستعمارية، والثاني يعود إلى مرحلة ما بعد الاستقلال والذي يتميز بالطابع المحلي.

2-5 الزاوية التجانية برأس الماء النشأة والتطور:

تأسست الزاوية التجانية برأس الماء سنة 1940على يد الشيخ "علي بن محمود التجاني" والذي تزعم مشيخة هذه الزاوية منذ تأسيسها إلى غاية وفاته سنة 1990. مع العلم أن هذه الزاوية قد احتضنت مقر خلافة الطريقة التجانية من سنة 1975 إلى غاية 1990، أي حتى وفاة هذا الشيخ، ليعود مركز الخلافة إلى "عين ماضي" بولاية الأغواط أين توجد الزاوية الأم لهذه الطريقة.

وقد تغير مقر الزاوية سنة 2001، حيث بنيت زاوية جديدة بالقرب من مقر الزاوية القديمة، والتي تحولت إلى مسكن لشيخ الزاوية الحالي. وربما يعود تحويل مقر الزاوية إلى الإعانات التي تلقتها الزاوية التجانية من السلطات على غرار المساعدات المالية التي تلقتها الزوايا وخاصة منذ سنة 2000 من قبل السلطة.

فالزاوية التجانية الجديدة برأس الماء تتربع على مساحة تقدر بحوالي الألف متر مربع، وتقع بوسط المدينة كما أنها لا تبعد كثيرا عن مقر الزاوية القديمة، وهي الآن مقرا لسكن شيخ الزاوية والذي يبقى القبلة والوجهة الأولى للزائرين سواء كانوا أحبابا أم مريدين. وهذا ما أمكننا ملاحظته عن طريق الزيارات الميدانية التي قمنا بها للزاوية التجانية برأس الماء، أين يبدو الإقبال كبيرا على بيت الشيخ والذي يظل مفتوحا طوال النهار عكس الزاوية التي يظل بابها مغلقا ما عدا أوقات الصلاة.

تتوسط الزاوية قبة كبيرة ملونة باللون الأخضر الناصع، وهو ما يميز مظهرها الداخلي الذي يطل على بهو المصلى، في حين أن مظهرها الخارجي يطل على السماء. وبما أن الزاوية تقع بمكان مرتفع نسبيا، فإن قبتها تظهر للعيان من بعيد ومن أي موقع كان بالمدينة، وكأنها وضعت خصيصا لذلك، أي أن اختيار المكان لم يكن صدفة وإنما كان مقصود، حتى تتراءى الزاوية للقادم إلى هذه المدينة من بعيد وبأي ناحية من نواحي هذه المدينة يمكنه رؤية هذه القبة التي تعلو الزاوية.

يقابل الزاوية مقر الدرك الوطني من الجهة الجنوبية، وهذا ما يؤكد ربما فرضية اختيار الموقع والمكان المناسب للزاوية، ويكون هذا القرب عن مقر الدرك الوطني راجع إلى العامل الأمني، أي من أجل تأمين وضمان سلامة الزاوية من أي اعتداء، وخاصة بعدما عرفته الجزائر من أعمال العنف في العشرية الحمراء والذي طال الأرواح والممتلكات. ومن الجهة الشرقية تطل الزاوية على السكة الحديدية التي تربط بين وهران-بشار. أما من الجهتين الشمالية والغربية فإن الزاوية تطل على شارعين ومساكن وبعض المتاجر.

أما المدخل، فإن للزاوية مدخل رئيسي واحد وهو الذي يطل على مركز الدرك الوطني، بباب كبير ذو دفتين، وقد نقش عليه "جوهرة الكمال" وهو ورد مشهور لدى التجانيين، كما كتب هذا الورد على جانب الباب على لوح معلق بالجدار على يمين الباب.

على الرغم من كبر المسجد (المصلى) إلا أنه لا توجد به صومعة. كما أن باب الزاوية مغلق معظم الوقت ولا يفتح إلا في أوقات الصلاة، حيث تقام به الصلوات الخمس اليومية، في حين أن صلاة الجمعة لا تقام به بل تقام بالمساجد الأخرى، كما أنه لا يوجد به مئذنة ومؤذن وإنما تقام الصلاة بناءا على آذان المساجد الأخرى والتي تتواجد بأماكن ليست بالبعيدة عن مقر الزاوية.

أما فيما يخص الأشخاص القائمين على تسيير شؤون المسجد والزاوية، فإننا نجد كل من (القيّم)، وهو الذي يعمل على استقبال الزائرين والضيوف وخدمتهم، كما يسهر على تنظيف وتنظيم شؤون الزاوية والمسجد الموجود بها. كما يوجد (إمام) يضمن إقامة الصلوات الخمس بمسجد الزاوية حيث يلازم الزاوية في كل أوقات الصلاة الخمس في اليوم. وإلى جانب الإمام يوجد

(معلم قرآن) بالزاوية حيث يقوم بتعليم القرآن للصغار، غير أن الملاحظ أن عدد الطلبة قليل جد لا يتعدى الستة طلاب وهم كلهم أشبال مبتدئين ويسكنون بجوار الزاوية. كما تضم الزاوية (المقدم) وهو الذي ينوب عن الشيخ في أوقات غيابه، وللعلم أن مقدم هذه الزاوية هو والد إمام مسجدها. وإلى جاني مقدم الزاوية نجد (الوكيل) وهو الذي يمثل الشيخ في العديد من القضايا وخاصة ما يتعلق بالأمور الإدارية والمالية، وهو من المقربين جدا للشيخ.

من خلال الزيارات الميدانية التي قمنا بها أمكن لنا بناء علاقات مع الأعضاء القائمين على شؤون الزاوية التجانية برأس الماء، وكان ذلك عن طريق الجلسات الودية التي جمعتنا بهم، وكذلك من خلال المقابلات التي قمنا بها معهم. كما مكنتنا الزيارات الدورية التي قمنا بها من الالتقاء بمريد تجاني من السودان والذي بقي مدة ثلاثة أشهر بالزاوية معتكفا بها، وهذا بعدما مكث مدة من الوقت في الزاوية الأم للطريقة التجانية بـ (عين ماضي) ولاية الأغواط، وكانت وجهته بعد ذلك إلى الزاوية التجانية بفاس بالمغرب الأقصى أين يتواجد ضريح الشيخ مؤسس الطريقة وهو (أحمد التجاني). ومن خلال الجلسة التي جمعتنا مع هذا المريد السوداني تبيّن لنا أنه مريد وفي للطريقة التجانية، وهو على إطلاع كبير على التصوف عامة والطريقة التجانية بصفة خاصة، وقد تعجب من عدم اهتمام الجزائريين بالإسلام الطرقي عامة وبالطريقة التجانية على وجه الخصوص إذ قال لي: «كنت أعتقد قبل مجيئي للجزائر أن المجتمع الجزائري كله تجاني».

6-الممارسة الاحتفالية والطقوسية عند الطرقيين:

6-1مكانة شيخ الزاوية عند مريدي وأحباب التجانية:

مما تبيّن لنا من خلال الزيارات الميدانية التي قمنا بها للزاوية التجانية برأس الماء أن قبلة المريدين والأحباب التجانيين هي مقر الزاوية القديمة والتي أصبحت مسكنا لشيخ هذه الزاوية، حيث أن المريدين والأحباب يقصدون مسكن الشيخ وليس الزاوية التي تظل مغلقة فيما عدا أوقات الصلاة. في حين يبقى منزل الشيخ مفتوحا لاستقبال الزائرين وخاصة القادمين من ولايات ومناطق أخرى. وهذا ما يؤكد مكانة الشيخ ورمزيته لدى المريدين التجانيين الراغبين في التماس البركة التي يحوزها هذا الشيخ والذي يلقبونه بـ(الشريف) و(سيدنا)، ومن هنا يمكننا تصنيف مكانة الشيخ بالكاريزما الوراثية وليس المكتسبة، حيث أنه يستمد شرعيته الدينية والاجتماعية من انتماءه إلى العائلة التجانية والتي تعتبر نفسها أنها تنحدر من نسل الرسول (ص)، أي أنها تنتمي إلى آل البيت والنسب الشريف. وقد قال لي أحد المريدين وهو (وكيل) الزاوية وهو يشير إلى شيخ الزاوية: «هذا أحد أحفاد الرسول (ص) أمامك».

فعبر اللقاءات التي قمنا بها مع شيخ الزاوية في بيته مع مجموعة من المريدين أنه شخص عادي ولا تبدو عليه مظاهر التميز والتفرد، كما أنه لا يبدو عليه الاطلاع والإلمام الكبيرين على المستوى العلمي والديني - الصوفي وإنما يبدو أنه على مستوى متواضع من العلم وإطلاع محدود على الثقافة الإسلامية عامة والثقافة الصوفية بصفة خاصة، وهذا ما ينزع عليه صفة الكاريزما المكتسبة حسب المصطلح الفيبرى نسبة لـ (ماكس فيبر). إلا أنه على الرغم من ذلك تبقى رمزية الشيخ تجلب إليها المريدين والأحباب وذلك طمعا في نيل البركة والرضا من الشيخ الذي يحظى بتقديس وإجلال كبيرين. «فكل ما يفعل لأجل الشيخ أو حوله يغلّفه الإجلال والتحفظ والحياء. هذا الحياء الذي لا يستثني إلا الشفافية المطلوبة من المريد. إن الحياء في الأدب يجاور الفناء في الخدمة، كما يجاور الخشوع الذي ينبغي إظهاره إزاء الشيخ» (حمودي، 2003، ص. 127)

فصفة التقديس والتعظيم ليست ميزة التجانيين وحدهم، وإنما هي ميزة كل المريدين والأتباع لكل الطرق والزوايا، إذ تحتل شخصية الشيخ مكانة سامية في أعين المريدين والأتباع. غير أن الفرق بين الزوايا التي لا تنتمي إلى طريقة معينة، والزوايا التي هي تابعة لطريقة معينة والتي تعتبر التجانية واحدة منها هو أن الأولى تقتصر فيها صفة التبجيل والتعظيم على شخص الشيخ وحده. في حين أن الثانية لا يقتصر التقديس والاحترام على شخصية الشيخ بل يتعداه إلى جميع أعضاء العائلة. وهذا ما لاحظنا أثناء وجودنا بمنزل شيخ الزاوية التجانية برأس الماء، إذ صادف وجودنا هناك حضور ابن عم شيخ الزاوية برفقة أخيه الأصغر.

فبعدما كنا مجتمعين رفقة شيخ الزاوية ومجموعة من المريدين نتناول الشاي، وإذا بابن عم الشيخ يدخل علينا في القاعة المخصصة لاستقبال الضيوف برفقة أخيه الأصغر الذي لا يتجاوز عمره الثمانية عشرة عاما، وإذا بالمريدين يقفون جميعهم للتسليم وتقبيل (الشريف وأخيه) مرددين اسم (سيدي)، وبعدما جلسا الوافدان علينا أذن الشيخ للمريدين بالجلوس فجلسوا على شكل حلقة، في حين أن الشريف وأخيه جلسا إلى جانب الشيخ مستندين على الحائط، أما الجماعة الأخرى من المريدين فجلسوا على شكل حلقة وهم مقرفصين، «فعلى التابعين أن يلزموا في حضرة الشيخ، وضع الإجلال، ويبدو الخشوع التام. وتستعمل في ذلك الأوضاع الجسدية أولا: الإطراق التام. وحين يتحلقون حوله ينبغي أن يقرفصوا، ويمنع عليهم التربع. فهذا الامتياز للشيخ وحده. ولا يقبل المزاح. كما أن الشيخ يوجه الكلام، أما المريد عليه أن ينتظر حتى يتكلم هذا الأخير فيقتصر هو على أجوبة قصيرة». (حمودي، 2003، ص. 127) فهذا ما يجعل البركة في نظر واعتقاد التجانيين متجسدة في كل نسل وأحفاد التجاني بقطع النظر عن المؤهل العلمي أو الديني الذي يحمله آل التجاني.

وإذا كان "ليس هناك فاصل بشكل قاطع بين الزوايا والطرقية والمرابطية، إلا من حيث شخصية القائمين عليها، ونوعية الدور الذي تؤديه. فيمكن لبعض الزوايا أن تكون تابعة لطريقة معينة كما يمكن لشيخ الزاوية أن يكون مرابطيا أو لا يكون" (الراسي، 2008، ص. 227) غير أن الاختلاف بين هذه الزوايا يكمن في كون الزوايا التي تنتمي إلى طريقة معينة ويكون شيخها مرابطيا و(شريفا)، مثلما هو بالنسبة للزاوية التجانية (برأس الماء)، يكون مركز الشيخ فيها ومقامه أكبر من الزاوية التي يكون شيخها غير مرابطيا ولا ينتمي إلى النسب الشريف. وذلك لان خاصية النسب الشريف تحتل مكانة عالية ومتميزة في المخيال الجماعي بالمجتمعات المغاربية، "لأن السر في الأشياخ لا في الأذكار" (حمودي، 2003، ص. 122)

قد اجمع المبحوثين الذين قمنا بإجراء مقابلات معهم على تعظيم وتبجيل شيخ الزاوية، لا لأنه شيخا للزاوية وإنما لكونه من أحفاد الشيخ "أحمد التجاني" مؤسس الطريقة التجانية، والمنحدر من سلالة الرسول حسب ما تقول به رواياتهم، وهو الذي أتاه الفتح على يد الرسول والذي يكون قد رآه في اليقظة وليس في النوم ولقنه أذكار الطريقة حسب ما ترويه مصادرهم.

هذا ما يجعل من الطريقة التجانية تشترط على مريديها بعدم الانخراط أو الانتماء إلى الطرائق الصوفية الأخرى، وذلك لان الطريقة التجانية جمعت كل ما جات به الطرائق الأخرى، وبأن "أحمد التجاني" هو خاتم الشيوخ والأولياء، وهذا ما يجعل المريد التجاني في غنى عن الانضمام إلى الطرائق الأخرى. فمثلما كان الرسول محمد خاتما للأنبياء والرسل، فان حفيده "أحمد التجاني" كذلك هو خاتما للأولياء والمرابطين وربما يكون هذا الاعتقاد وراء الانتشار الواسع للتجانية بإفريقيا.

من هنا تصبح شخصية الشيخ محبوبة ومرغوبة ومقدسة، والتقرب منها غاية نبيلة يتنافس عليها المريدين والأحباب بغية التماس البركة والرضا." فبين الشيخ والمريد توجد علاقة تبعية (مطلقة). فإذا كان امتياز القداسة يتجسد عن طريق التربية الروحية، فعلى المريد أن يتخلص ويتجرد من كل ما هو خارجي ليضع نفسه تحت تصرف الشيخ وفي خدمته: إذ أن مكانة المريد ودرجته تقاس حسب درجة وفاءه وطاعته". (Boubrik, 2008, p. 90) وذلك لنبل رضا الشيخ (الشريف) والاستفادة من بركته، والتي تلتمس عن طريق المجالسة والخدمة والطاعة وتقديم الهدايا...

فالتقديس الذي يحظى به شيخ الزاوية نابع من انتسابه الموروث لا بالرياضة والمجاهدة التي يختص بها المتصوفة، وهذا الانتساب هو الذي يؤهله لكي يكون وارثا للبركة أو "(المانا) هذه القوة الروحية، والتي لا تقتصر فقط على الديانة الطوطمية وحدها، وإنما هي موجودة في كل

الديانات. فهي تعطي القوة والقيمة (الدينية السحرية، الاجتماعية...) للكائنات والأشياء...". (Moussaoui, 2002, p. 90) فالمقدس هو طاقة مضافة للواقع.

صفة القداسة التي يحظى بها الشيخ تحمل معنيين مختلفين حتى لا أقول متناقضين، فبقدر ما هو شخص محبوب ومرغوب يرجى التقرب منه والاستفادة من بركاته وخيراته الروحية والمعنوية، بقدر ما هو مهاب ويخشى منه، أي انه محاط بهالة من المحرمات والمحظورات، أو بالتعبير الأنثروبولوجي محاط بالكثير من (الطابوهات)، "فالمريد لا يأكل مع شيخه، ولا يقاسمه غرفته، ولا يمد رجليه ولا يضحك في حضرته، وعليه أن يطأطئ رأسه (الإطراق التام)". (حمودي، 2003، ص. 179)

فالاعتقاد الراسخ لدى المريدين والأحباب التجانيين هو أن الشيخ التجاني لزاوية رأس الماء يعد وارثا للبركة عن طريق الانحدار السلالي، أي بصفته منتميا إلى آل التجاني، وهذا ما يؤهله لكي يكون مكتسبا لسلطة روحية توازي أو تفوق كل السلطات الأخرى. كما أن هذه السلطة لا تقتصر على ما هو إنساني بل تتجاوزه إلى العوالم الما فوق طبيعية أي عالم الجن، وهذا ما صرح لنا به أحد أعضاء الزاوية. ولذلك نجد أن المريدين التجانيين يسعون بكل الطرق للتقرب من الشيخ ونيل رضاه وبركته سواء بالخدمة أو بالهدايا والتواضع.

"ولكي يصير الشخص (خادما)، وهو شرف يحسد عليه، لا بد له من مخالطة طويلة ومن خضوع تجليه سلوكات التواضع والصغارة في حضرة الشيخ. ويتجسد إبراز هذه الآلية الحيوية التي تقع في مركز ممارسة هذا النوع من السلطة، في مسرحة الخضوع والصغارة بتقبيل اليد". (حمودي، 2003، ص. 63)

فالاعتقاد الراسخ لدى المتدينين عامة والمتصوفة والطرقيين بصفة خاصة، هو أنه بإمكان الإنسان أن يتوصل لإدراك الحقيقة المطلقة والمعرفة اللدنية و(العرفان)، والذي هو من نصيب الخاصة من الناس أي الذين حباهم الله بهذا الامتياز الذي يشترك فيه الشرفاء عن طريق الوراثة من المتصوفين بواسطة الزهد والرياضة ومجاهدة النفس والخلوة والتعبد، أو بتعبير أخر عن طريق مسلك السالكين بعد المرور بالمقامات والدرجات.

2-6-الهدية وقيمتها الرمزية عند التجانيين:

يعتبر نظام الهدايا والعطايا أقدم نظام اقتصادي عرفته المجتمعات البشرية يتم فيه تبادل الهدايا بين القبائل والعشائر، وهذا ما يسميه "مارسال موس" Marcel Mauss» "بالبوتلاش" Potlach، أي التغذية والاستهلاك، كما يسميه مالينوفسكي Malinowski بالكولا Kula.

فهذا التبادل لا يتم على مستوى الأفراد بل يتم على مستوى الجماعات بصفة إجبارية فالأشخاص الذين يقومون بهذا العقد هم أشخاص معنويون، كالعشائر والقبائل، الأسر، وذلك بطريقة مباشرة، وعن طريق وساطة رؤساء وهذه القبائل والعشائر أو بالطريقتين على حد سوء. (Mauss, 1989, p. 06)

من هنا تظهر إجبارية وضرورية تقديم وأخذ الهدايا التي لا تقتصر على العامل الاقتصادي فقط بل تتجاوزه إلى الجانب الثقافي والرمزي الذي يخضع إلى شعائر وطقوس خاصة تبرز من خلالها كل قبيلة وجماعة خصوصيتها وذاتيتها كما تعبر عن طريق ذلك عن هويتها وكينونتها.

فتقديم الهدية وقبولها يمثل الشرف وكرامة لمقدمها، كما يلزم هذا على طرف الآخر ردها بشكل أخر وعلى صيغة أخرى. فتبادل الهدايا بين القبائل والجماعات تمثل البركة (المانا) Mana بالنسبة لها، إذ من خلال هذا التبادل تتضاعف وتتزايد الثروات والخبرات.(Mauss, 1989, p. 16) ومن هنا يتضح ما مدى أهمية الجانب الرمزي لهذه التبادلات والهدايا إذ أن قيمتها لا تكمن في حجمها وشكلها ولا في قيمتها المادية بقدر ما تكمن في قيمتها المعنوية والرمزية، وهو ما يسمى بالبركة (المانا) عند القبائل الأسترالية، غير انه لا يقتصر على هذه القبائل فقط وإنما هو متواجد عند العديد القبائل والجماعات الأخرى بما فيها العربية والإسلامية مع احتفاظ بخصوصية كل ثقافة فهو وإن اختلف من ثقافة إلى أخرى في شكله الخاص يبقى بحافظ على كثير من الميزات والخصائص في مظهره العام.

غير أن مفهوم الهدية بالنسبة التجانيين والطرقيين بصفة عامة يختلف عن مفهوم الهدية أو بالبوتلاش Potlach أو الكولا Kula ويكمن الاختلاف في كون مقدم الهدية يعد فردا لا جماعة أي انه يقدمها باسمه الخاص في اغلب الأحيان، كما أنها لا تقدم لجماعة أو عشيرة وإنما تقدم لشيخ التجانية وقد تكون على شكل بضائع وسلع في أغلب الأحيان تكون فقدا، أي مبالغ مالية يقدمها المريد أو الحبيب إلى شيخ الطريقة والزاوية «برأس الماء).

وإذا كان نظام البوتلاش يتم في إطار رسمي وعلني فان الهدية عند التجانيين غالبا ما تتم على انفراد، ولا يتم الإفصاح عن قيمة الهدية سوء اكانت نقدا أو بضاعة. كما تختلف طريقة تقديم الهدية بين الأحباب والمريدين، وهذا ما أمكننا ملاحظته أثناء تواجدنا بمسكن سيخ الزاوية التجانية.

في حين الأحباب وبحكم زياراتهم الغير المنتظمة، فإن تقديمهم للهدية قد يكون بشكل سري أو بشكل علني أي أنه حتى وإن كانت الهدية تقدم أمام العديد من الأحباب والمريدين إلا أنه لا يتم الإفصاح عن قيمتها وإنما يقدمها الحبيب من يده إلى يد الشيخ مباشرة، وغالبا ما يتم ذلك عند

الانصراف بعد طلب إذن من الشيخ، وبعد أن يسمح له الشيخ بالانصراف فيقوم الحبيب ويقبل رأس ويد الشيخ ثم يقدم له هذه الهدية (المبلغ المالي)، ثم ينصرف. إلا أنه على الرغم من ذلك فان تقديم الهدية بالنسبة للأحباب يختلف في طريقة تقديمها من حبيب إلى آخر وقد يعود إلى عدم خضوع الأحباب إلى التنشئة الاجتماعية والدينية على الطريقة التجانية، وهذا ما يجعلهم يتمتعون بهامش من الحرية لعدم خضوعهم التام لتعاليم وشعائر الطريقة التجانية.

ويختلف تقديم الهدية بين الهدية التي يكون على شكل قيمة نقدية والهدية التي تكون على شكل سلعة أو بضاعة، حيث يمكن الاختلاف في التقديم والتأخير، فالهدية التي تكون في شكل قيمة نقدية تقدم مؤخرا أي عند الانصراف، في حين أن السلعة أو البضاعة فإنها تقدم مسبقا أي عند قدوم المريد أو الحبيب إلى مقر الزاوية. كما يمكن اختلاف الهدية بين السلعة والنقود في كون الأولى غالبا ما تقدم إلى شيخ الزاوية بنسبة دعم الزاوية كمؤسسة تضم مريدين وحفظة قرآن(الطلبة) برفع الطاء أما الثانية أي النقود فإنما تقدم إلى شخص الشيخ لا إلى الزاوية كمؤسسة.

فالهدية هي الوسيلة المثلى للتقرب أكثر من شيخ الزاوية ومن ثم نيل الرضا والبركة منه. فالمقدم لهذه الهدية سواء اكانت نقدا او سلعة فهو ينتظر مقابلا معنويا ورمزيا، وهو الرضا والبركة. وإذا ما قارنا طبيعة الهدية عند التجانيين وطبيعة الهدية عند القبائل الأسترالية وغيرها من قبائل أمريكا الجنوبية، فالبوتلاش عند هذه القبائل كان بحيث فالهدية بهذا المعنى هي التبادل بين الفيزيقي والميتافيزيقي بين الطبيعي والمافوق طبيعي، بين الزمني والروحي. ولهذا فالمريد والحبيب التجاني يقدم هديته الى الشيخ في شكل نقود أو سلع بنية مقابل معنوي وروحي ورمزي، على شكل بركة ينتفع بها ورضا من الشيخ (الشريف) يحميه من كل ضرر وبلاء، فبركة الشيخ لا تعود إلى ما اكتسبه من بركة عن طريق المجاهدة والرياضة، وإنما تعود إلى انتماءه إلى نسل احمد التجاني والذي يعتبرونه شريفا أي ينحدر من النسب الشريف، وهذا ما يجعل كل أحفاده يرثون عنه هذه البركة التي يسعى الأتباع للاستفادة والانتفاع منها.

تكثر الهدايا خاصة في المواسم والاحتفالات، والتي يعتبر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف أبرزها، أين يتوافد الكثير من التباع والأحباب من أماكن وولايات مختلفة لإحياء هذه الذكرى والتي تتميز بمكانة خاصة لدى كل من القائمين على الطريقة التجانية وأتباعها من المريدين والأحباب وهي فرصة لالتقاء التجانيين، كما أنها فرصة لتقديم الهدايا والعطايا مساهمة في إنجاح وإحياء هذه الذكرى من جهة، ومن جهة ثانية هي فرصة للتقرب من الشيخ طمعا في نيل رضاه وبركته باعتباره حفيدا من أحفاد الرسول، ومن ثم وارثا للبركة النبوية.

فالمريدين والأحباب التجانيين يقومون بتأدية دورين مختلفين فمن جهة هم مقدمو الهدايا في شكل مواد غذائية وخضر وفواكه وما إلى غير ذلك وهذا للمشاركة في إحياء هذه الذكرى (المولد النبوي الشريف)، ومن جهة ثانية يعتبرون ضيوف واجب إطعامهم وتوفير ظروف الإقامة والمبيت لهم، ويعتبر الشيخ هو المضيف لهم وذلك سواءا ببيته أو بمقر الزاوية أين يبدأ الاحتفال في ليلة المولد النبوي الشريف ويختم في اليوم الموالي ببيت شيخ الزاوية. فإطعام الضيوف الوافدين من بعيد يتولاه الأحباب والمريدين القاطنين برأس الماء وهذا بالعشاء في حين أن الغذاء فيكون في اليوم الموالي والذي يتكفل به الشيخ ببيته أين يقيم اختتام هذا الاحتفال.

فالثروات المادية التي تجمع عن طريق الهدية حسب ما يراه" بيار بورديو" Pierre Bourdieuبأن قيمتها لا تتمثل في وظيفتها الاقتصادية أو التقنية بل قد لا تكون لها أي منفعة مادية على الإطلاق وإنما هي عبارة عن أداة لإظهار واستعراض للسلطة. (Boubrik, 2008, p. 90) وهذا ما يؤكد أن الجانب الرمزي للهدية هو أكبر من كثير من قيمتها المادية حيث أن مقدم الهدية يلتمس الرضا والبركة كما يؤكد عن طريق الهدية عن وفاءه وإخلاصه للشيخ. ومن جهة الشيخ فهو يقبل الهدية لا على أساس قيمتها المادية وإنما على أساس قيمتها الرمزية، حيث تكون بالنسبة إليه كأداة لتأكيد وتثبيت سلطته الروحية على مقدمي هذه الهدايا من مريدين وأحباب.

كما أن النفقات المادية التي يقدمها الشيخ لزائريه وضيوفه من مريدين وأحباب (أتباع) تدخل ضمن استراتيجية مراكمة الرأسمال الرمزي. فعن طريق هذه النفقات يؤكد الشيخ ويعبر عن علامات الغنى المعروفة والمتعارف عليها في الوسط الاجتماعي، حيث تعتبر نوعا من التأكيد الذاتي الشرعي والمشرعن لسلطته. (Boubrik, 2008, p. 91)

وهذا ما يجعل المادية تفقد قيمتها الاقتصادية لتتحول إلى قيم رمزية ومعنوية يتم من خلالها إظهار وتأكيد السلطة الروحية الواجب احترامها وتقديسها لنيل الرضا والبركة اللذان يعتبران من بين أسمى الغايات والأهداف التي يسعى لنيلها وبلوغها الأتباع من مريدين وأحباب.

فالهدية هي أداة للتفاعل الرمزي بين الشيخ والأتباع، حيث تمثل للأتباع الوسيلة المثلى لنيل الرضا وإظهار الإجلال والخشوع، في حين أنها تمثل وسيلة من وسائل إثبات السلطة وتأكيدها من طرف الشيخ بصفته الحامل للبركة ومن ثم الوارث للسلطة الروحية التي يتمتع بها مما يجعله متميزا عن أتباعه ومريديه، وهذا ما يرُسخ مبدأ الطاعة والولاء المتبادلين بين الشيخ والمريدين.

3-6-الأعياد والاحتفالات الطقوسية عند التجانيين:

تعد الاحتفالات من المناسبات هامة التي تجمع بين أعضاء الزاوية التجانية، وهذا لكل ما تحمله من دلالات ومعاني لدى المنتمين إلى هذه الطريقة وهذه الزاوية، فمن خلال هذه

الاحتفالات الطقوسية يعتبر التجانيين عند روح الانتماء وتعزيز مبدأ التضامن كجماعة دينية لها ميزاتها وخصوصياتها الطقوسية والاعتقادية وهذا ما يجعلها تشعر بوحدة الانتماء والاعتقاد مما يعزز لديها فكرة الاتحاد والتضامن والشعور بالانسجام والتكامل.

فالاحتفالات بالنسبة للتجانيين، حتى وإن كان المقدس فيها هو الشيء الجوهري غير أنها ذات طابع علائقي حيث انه مهما كانت طبيعة هذا المقدس كائنا كان أو شيء، قبة أو جدا إلا انه يبقى ذات طابع رمزي ودلالي ولهذا فان الطابع ألعلائقي هو الذي يضفي صفة القداسة على الشيء أو الكائن. وهذا ما يظهر ويتجسد بصفة عامة في الاحتفالات (Moussaoui, 2002, p. 16) وهذا ما يسمح للجماعة بتوطيد العلاقات وتمتينها ويرسخ الثقة بالنفس ويؤكد على صدق وصحة الاعتقاد.

ومن المواسم الاحتفالية الكبرى لدى التجانيين هو احتفال المولد النبوي الشريف الذي يقام سنويا بمقر الزاوية التجانية "برأس الماء" ويعد هذا الاحتفال فرصة كبيرة بالنسبة للمريدين والأحباب للالتقاء وإحياء هذه الذكرى التي تحظى بمكانه مميزة لدى التجانيين، حيث يتوافد على الزاوية العديد من الأتباع والمريدين من العديد من المناطق والولايات القريبة منها والبعيدة الحضارية منها والريفية الساحلية والداخلية والصحراوية. كما تختلف الشرائح الاجتماعية وتتعدد، إذ نجد الأستاذ الجامعي والإداري، كما نجد التاجر والفلاح والموال. كما نجد اختلافا في الفئات العمرية إذ نجد الشباب الذي لم يتجاوز العشرين من عمره كما نجد الكهل والشيخ الذي لا يقدر على السير. كما نلاحظ أنه وإن اختلف المحتفلون في أصولهم الاجتماعية وفئاتهم العمرية ومستوياتهم التعليمية، إلا أنهم يتوحدون في جماعة واحدة ومؤسسة واحدة وهي الطريقة والزاوية التجانية.

يبدأ الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف مباشرة بعد صلاة العصر بمسجد الزاوية، حيث يجتمع الأتباع من مريدين وأحباب تجانبين وعلى رأسهم شيخ الزاوية الذي يجلس بالقرب من المحراب وبجانبه مقدم الزاوية ويجلس بمقابلهم المريدين على شكل صفوف، ويأخذ كل منهم نسخة من كتيب هو عبارة عن مدح للرسول (صلى الله عليم وسلم)، ثم تبدأ التلاوة جماعيا وبإيقاع واحد حيث تتوحد الأصوات في تناغم واحد مع هز الرؤوس وتحريك الأجساد وهذا ما يعطي لحركة الأجساد وهز الرؤوس ديناميكية وحرارة ويجعلها تتحرك وتهتز مع نبرات الأصوات مما يعطيها طابع الانسجام والتناغم.

وتستمر هذه المدائح إلى غاية صلاة المغرب، حيث يقوم الحاضرون بإقامة الصلاة، ثم تستأنف تلاوة وقراءة المدائح إلى غاية صلاة العشاء، غير أن الملاحظ هو أن شيخ الزاوية لا يقرأ مع

الحضور، وإنما يكتفي بالجلوس والصمت في وضعية مقابلة للأتباع، وكأنه بذلك يعبر عن التميز والتفرد المطلوب توفره في كل شيخ من جهة، ومن جهة ثانية كأنه يمارس دور المراقب الذي يتنافس المحتفلون في الظهور أمامه بإظهار الوفاء والإخلاص لنيل الرضا والبركة من قبله.

ولذلك فمن الممكن اعتبار الطقس وإعطاءه تعريفا شاملا ومتعدد المعاني: فهو عبارة عن نظام من الممارسات المرمزة (المشفرة)، والمرتبطة بمجموعة من الشروط المكانية والزمنية، والتي لها معنى وقيمة رمزية بالنسبة للممارسين والشهود الحاضرين، حيث يتم استخدام الحركات الجسدية والتي يكون لها علاقة بالمقدس. (Maisonneuve, 1995, p. 62) وهذا ما يظهر في الممارسات عند التجانيين، حيث أن نبرات الأصوات وحركات الأجساد تأخذ شكلا وإيقاعا واحدا وهو ما يزيد في شحن الأنفس والأرواح ويجعلها تزيد في سرعة ودرجة الصوت والحركة مما يضفي عليها طابع الانسجام والتناغم، كما يرسخ لديها وثوقية العلاقة مع المقدس، ومن ثم الشعور بالراحة والاطمئنان، ويخرجها من عالم الحسيات ليسموا بها إلى عالم الروحيات.

بعد صلاة العشاء يتم تقديم العشاء للحاضرين، حيث يتحلق الحاضرون في شكل جماعات تضم كل منها أربعة أفراد ويتولى توزيع العشاء السكان المحليون، أي من قاطني "رأس الماء" لأن الضيوف هم في غالبيتهم من مناطق بعيدة. وللتذكير فان الوليمة أو العشاء وهي من اختصاص عشيرة "الخلايفة" أي الذين ينحدرون من الولي " سيدي خليفة" الذي يقع ضريحه بالقرب من بلدية الخيثر التابعة إداريا لولاية البيض. فهذا ما يجعلها تعطي بعدا للانحدار السلالي وللنسب الشريف الذي يعتبر المحدد الأساسي والرئيسي للعلاقات الاجتماعية والاعتقادية للمنتمين للطريقة والزاوية التجانية.

بعد انقضاء العشاء يستأنف الاحتفال بالمدائح الدينية وخاصة مدح الرسول (صلى الله عليه سلم) ويتواصل ذلك حتى يتم ختم هذه المدائح، ونظرا لطول المدائح حيث أنها في كتيب صغير من 130 صفحة، فإنه يتعذر على كثيرين حفظها ولذلك فان المحتفلين يتم توزيع نسخ عليهم ليتسنى لهم المشاركة في الاحتفال. وبعد ذلك يقوم مريد بتقديم كلمة (محاضرة) يتطرق فيها إلى جانب من جوانب حياة الرسول، وللعلم أن هذه المحاضرة قد قام بإلقائها أستاذ جامعي، وقد ألقى هذه المحاضرة وهو جالس بجانب شيخ الزاوية.

بعد ذلك يركن الجميع إلى الصمت للذكر والتسبيح، حيث يخيم السكون إلى فترة تصل إلى أكثر من نصف ساعة، وبعد ذلك يقوم شيخ الزاوية بقراءة سورة الفاتحة ويبدأ في الدعاء والتوسل لله، ليتم بعد ذلك الاعلان عن اختتام هذا الاحتفال لهذه الليلة ويدعو الحاضرين لمواصلة الاحتفال يوم الغد بمقر ببيته أي المقر السابق للزاوية، وبهذا تختتم الليلة الأولى من الاحتفال

بالمولد النبوي الشريف، لينصرف الحضور حيث يتوزع الضيوف بين الزاوية الجديدة ومقر الزاوية القديمة أين يسكن شيخ الزاوية. غير أن الملاحظ هو أن شيخ الزاوية طيلة الاحتفال يظل صامت وقليل الحركة وهذا ما يعمُق مفهوم القداسة في نفوس الأتباع.

في صبيحة اليوم الثاني من الاحتفال يلتحق المريدون بمقر الزاوية القديم أين يقطن شيخ الزاوية، حيث يجتمعون بغرفة كبيرة مخصصة لاستقبال الزائرين من مريدين وأحباب، أين يقدم لهم فطور الصباح من قهوة وشاي وحلويات، والتي تحضر ببيت "الشيخ" و قبل حضور الشيخ إلى القاعة يدخل المحتفلون في تبادل أطراف الحديث أين يتم التعرف على المنتميين الجدد ويتم التعارف وتوطيد العلاقات والروابط فيما بينهم، وهذا ما يجعل كل مريد وحبيب للطريقة والزاوية التجانية يشعر بمدى صحة ومصداقية اعتقاده وانتماءه فمن خلال هذا التفاعل والتبادل في المشاعر والأحاسيس يتمكن المنتميين للزاوية إقناع الذات بصحة وسلامة اعتقادهم مما يعطي للنفس اطمئنانا أكثر.

بعد التحاق الشيخ يقوم الجميع بتقبيل رأسه ويده ويتحلقون حوله في آداب وإجلال، وبهذا يبدأ الاحتفال في يومه الثاني، حيث يقوم "الوكيل" وهو من المقربين جدا من الشيخ بتلاوة المدائح والباقي يردون بعده في انتظام عبر ضبط الصوت والحركة، أي تحريك الأجساد في حركات ارتدادية مع هز الرؤوس للأمام والخلف في حين يظل الشيخ صامتا وجالسا في مواجهة المتحلقين به من مريدين وأتباع يرقب من حين لأخر الحاضرين بنظرات خفيفة. أما الأتباع يردون المدائح وهم مطأطئ الرؤوس ومستجيبين لحركات أجسادهم ونبرات أصواتهم.

من دون شك انه يوجد طقوس لا تعتمد على الجسد كقاعدة مباشرة أو غير مباشرة في أفعاله (حركاته) أو في مشروعه. إما باعتباره المكان والموقع الذي تتحدد فيه الدلالات والعلامات، وإما لاعتباره مصدر للطاقة والتأثير كالنظرات والاتصالات والنداءات. (Maisonneuve, 1995, p. 12)

فهذا يعطي للطقس معاني ودلالات رمزية ويجعل إيقاع الكلمات والأصوات تتناسب مع حركات الأجساد مما يعطي طاقة إضافية إلى الممارسين، ويجعلهم يتحررون من الضغوطات اليومية ويستجيبون لرغباتهم الروحية والاعتقادية. وهذا ما يسعى للوصول إليه كل مريد طمعا في نيل الرضا والبركة اللذان يبقيان غاية كل سالك من السالكين.

ويستمر الاحتفال إلى غاية منتصف النهار، أين يتم تقديم الغذاء للضيوف والذي يتم إعداده ببيت الشيخ، حيث يتحلق الحاضرون في جماعات من أربعة أفراد لكل جماعة أمام مائدة الغذاء. والأكل من طعام الشيخ الذي يعتبره المريدين فرصة للتذوق والاستفادة من بركته إذ أن كل

ما يأتي من عند الشيخ فهو محفوف بالبركة وذلك لكون الشيخ وارث للبركة التجانية التي ورثها من جده الأول احمد التجاني بصفته شريفا منتسبا إلى آل البيت كما يعتقد التجانيون. وبعد الانتهاء من الطعام يقوم الشيخ بقراءة الفاتحة والدعاء، بذلك يكون اختتام الاحتفال الخاص بالمولد النبوي الشريف ليضرب موعدا للسنة القادمة.

7- نتائج الدراسة:

يمكن حصر النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة في النقاط التالية:

- يعتبر الاحتفال بالمولد النبوي بالنسبة للتجانين تعبيرا عن التميز كجماعة دينية وذلك نتيجة للاعتقاد السائد لديهم بأنهم ينتمون إلى طريقة صوفية مؤسسها الأول (أحمد التجاني) منحدر من النسب الشريف حسب رواياتهم.
- احياء ذكرى المولد النبوي والاحتفال به لدى التجانين هو نوع من أنواع إعادة التموقع الاستراتيجي في ظل تنامي وانتشار الفرق والطوائف الدينية الأخرى (السلفية، الإسلام السياسي، الشيعة...).
- مشيخة الطريقة والزاوية التجانية هي مشيخة وراثية وليست مكتسبة، عكس بعض الطرق الصوفية الأخرى التي لا تشترط الانحدار السلالي أو الوراثي في شيخ الزاوية، وإنما يتم فيها نقل المشيخة والحصول عليها عن طريق الإجازة.
- قداسة شيخ الزاوية ورمزيتها مستمدة من انحداره السلالي لا من تفوقه وتبحره العلمي أو غزارة تفقهه الديني، حيث أن شيخ الطريقة والزاوية يحتل مكانته الرمزية بكونه حفيد من أحفاد مؤسس الطريقة (أحمد التجاني)، والذي تعتبره رواياتهم بأنه ينحدر من النسب الشريف (حفيد من أحفاد الرسول).
- العلاقة بين المريدين والأحباب والأتباع التجانين هي علاقة تراتبية مبنية على أساس النسب والقرابة، حيث أن الأشراف يحتلون المكانة الأولى ليليهم المرابطين ثم القبائل والعشائر الأخرى.

8-خاتمة:

إن السبب الرئيسي للمعنى والمغزى الذي يوليه التجانيون للاحتفال بالمولد النبوي الشريف دون غيره يعود إلى أن آل التجاني يعتبرون أنفسهم ينحدرون من سلالة الرسول، ومن ثم التركيز على هذا العيد دون غيره من الأعياد الدينية الأخرى كعيد الفطر والأضحى وعاشوراء ومحرم وغيرها من المناسبات والأعياد الدينية. وعلى الرغم من التحولات والتغيرات السريعة التي يعرفها المجتمع الجزائري على غرار باقي المجتمعات، إلا أن التدين الطرقي والشعبي لا يزال يُمارس ويحاول أن يجد لنفسه مكانة في الحقل الديني في ظل المنافسة والصراع من طرف الفرق الإسلامية الأخرى.

ومع العلم أنه بالنسبة للتيارات الإسلامية الأخرى وخاصة التيار السلفي فإنه يعتبر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بدعة باطلة لا أساس لها ولم ترد لا في القرآن ولا في السنة. وانطلاقا من هذا، فالطريقة التجانية كطريقة من الطرائق الصوفية تحي هذه المناسبة وتخصص لها مكانة خاصة وهذا كرد على التيارات السلفية والأصولية التي تحرم هذه الممارسات وتعتبرها خارجة عن الشرع. ومن هنا يمكننا استنتاج أن الاحتفال بمناسبة المولد النبوي الشريف هو نوع من التحدي والصراع، ومن ثم التعبير عن الوجود وخاصة بعدما عرفته الجزائر في التسعينات من بروز الإسلام السياسي والتطرف الديني والذي أدى بالإسلام الطرقي إلى التراجع. كما أن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بالنسبة لأحفاد التجاني يعد تعبيرا عن التميز والتفرد وذلك باعتبار المولد هو مولد رسول الله، ومن جهة أخرى باعتباره جد يفتخر بالانتساب والانحدار من سلالته ونسله وهذا ما يعتقده التجانيون.

- قائمة المراجع:

- Boubrik, R. (2008). Saits et société. Paris, France: CNRS.
- Maisonneuve, J. (1995). Les conditions rituelles (éd. deuxième édition). Paris, France: Presses universitaires de france.
- Marouf, N. (2005). Les fondements anthropologiques de la norme maghrébine. Paris, France: harmattan.
- Mauss, M. (1989). Essai sur le don. (c. e. anis, Éd.) Alger, Algérie : ENAD.
- Moussaoui, A. (2002). espace et sacré au sahara. Paris, France: CNRS.
- جورج الراسي. (2008). الدولة والدين في الجزائر. الجزائر، الجزائر: دار القصبة للنشر.
- عبد الله حمودي. (2003). الشيخ والمريد (الإصدار الطبعة الثالثة). (جعفة عبد المجيد، المترجمون) الدار البيضاء، المغرب: دار توبقال للنشر.
- كليفورد غيرتز. (1995). الإسلام من وجهة نظر علم الإناسة. بيروت، لبنان: المتحدين للنشر.
- لطيفة الأخضر. (1993). الإسلام الطرقي. تونس، تونس: دار سراس للنشر.
- نور الدين طوالبي. (1998). الدين والطقوس والتغيرات. (العوا علي، المترجمون) بيروت: المنشورات العربية.